الشاعر الروماني الالماني
إدلبرت فون شميسو

الشاعر الرومانسي الألماني
آدلبرت فون شميسو
(1781 ـ 1838)

أبو العيد دودو
أستاذبمعهد اللغة والادب العربي

قد يحدث لأديب من الأدباء أو شاعر من الشعراء أن يختار الكتابة بلغة أجنبية رغم ما عرفته لغته القومية من تقدم وتطور وإزدهار، فيحتل بما له من عزيمة صادقة، وموهبة فطرية، مكانة مرموقة في تلك اللغة الأجنبية، ويصبح مبعث فخر لأهلها، على أنه لايلقى من مواطنيه غير الاهمال والنسيان، وأن هم إهتموا به ضمن تقاليد وأعراف معنية، فإنهم لايهتمون به إلا بقدر مساهمته في الفكر الانساني بصورة من الصور، وهكذا يفقد وطنه كما يفقد إنتماءه الأدبي. هذا ما حدث للشاعر الألماني ادلبيرت فون شميسو، فهو من أصل فرنسي، وإسمه الحقيقي لوى شارل آدليد دى شميسو دى بونكور، ينحذر من أسرة فرنسية عريقة، يربطها نسب بملوك فرنسا وإسبانيا وإيطاليا وقد ولد في قصر بونكور بمقاطعة شامباني (1)، ولكنه لم ينعم بهذا القصر طويلا لأن أسرته جردت من أملاكها، وهدم قصرها وسوي بالأرض، فهاجرت مع من هاجر من النبلاء الفرنسيين فرارا من الثورة عام 1790، وكان شميسو عند ئذ في التاسعة من عمره، وقد تحدث عن هذا القصر فيما بعد ذلك بحزن كبير، فقال في قصيدة تستمد عنوانها من القصر نفسه (2) :

غالبا ما أحلم أني طفل صغير،
فأهز رأسي الأشيب،
حين تحاصرني الصور التي
كنت أظن أني نسيتها،
وأرى قصرا يخرج من عمق
الظلال الوارفة، فأعرف فيه

البروج والأسوار المسننة
والجسر الحجري والباب الكبير.

وصعب على أسرتــه أن تجد الملجـأ الحقيقي، فعـرفت التشرد في عدد من المـدن والبلدان، فعاشت متنقلة بين بلجيكا وهولاندا وألمانيا. وفي عام 1796 التحق شميسو، بعد أن استقرت أسرته أخيرا بمدينة بايرويت بألمانيا، بخدمة ملكة بروسيا وأصبح واحدا من بين غلمانها، فسمحت له بمواصلة دراسته في الثانوية الفرنسية بمدينة برلين. وانضم في عام 1798 الى فرقة المشاة البروسية، وترقى فيها الى أن نال رتبة ملازم أول (3). وحين تلقت أسرته سنة 1801 الاذن بالعودة إلى فرنسا، عاد والداه إليها، وتبعهما أخواه وأخته، أما هو فقد فضل البقاء في ألمانيا والاحتفاظ بوظيفته في الجيش البروسي، إلا أن الجيش خيّب أمله ولم يوفر له ما كان ينتظره منه، فنفرت نفسه من معاشرة الضباط الألمان لما بداله فيهم من قسـوة وغلظة، وأقبـل بحـماسة كبيرة على قراءة أشعار كلوبستوك (1724 ـ 1803) وشيلر(1759 ـ 1805) وغوتة(1749 ـ 1832)، وشكسبير في الترجمة الألمانية، ثم بدأ يحاول الكتابة باللغة الألمانية(4).

ورغم ما كان قد أظهر في ذلك الحين من شغف باللغة الألمانية وحب الأدب الألماني، فإن الشعور بالغربة لم يلبث أن بدأ ينتابه بعد رحيل والديه وعودتهما الى فرنسا، كما أخذ الحنين الى الوطن يشتد عليه، فأعدّ نفسه لمغادرة ألمانيا نهائيا، إلا أن أسرته طلبت منه ألا يتخلى عن وظيفته ضمانا لمستقبله (5). ومع ذلك فقد شاءت الظروف أن تحقق له رغبته في رؤية أسرته، فقد مرض أخوه الأصغر، الذي كان يدرس في المدرسة العليا للهندسة بمدينة بو تسدام، فوجد نفسه مضطرا الى العودة به الى أبويه في فرنسا. ومن ثم لم يرجع الى ألمانيا الا في بداية عام 1893 ليقيم في مدينة برلين، وكان قد اقتنع بأن آراءه لم تعد تتلاءم مع آراء أسرته.

وتعـرف في برلـين على بعض الشخصيات الأدبية، فأزداد تعلقـا بألمـانيا وبالأدب الألماني، ورجع من جديد الى الكتابة باللغة الأم الثانية، وأصدر بمساعدة عدد من المتأدبين تقويما أطلق عليه إسم «الكتاب الأخضر» نظرا الى لون الغلاف، الذي كان يضم بين دفتيه «أفضـل ما يكتبـونـه من أشعـار(6)». وسـاعده أصدقاؤه كذلك على تدارك ما فاته من المعـارف، التي لاتكمل ثقافته بدونها، فدرس اللغة اليونانية دون أن يتخلى عن محاولاته الشعرية، الا أنه لم يستطع البقاء مدة طويلة في برلين، اذ كان حتما عليه أن يتبع الفرقة العسكرية، التي كان ينتمي إليها، في تنقلها من مكان الى آخر. واشتدت وطأة ذلك عليه، فاستقال من الجيش، ولكن إستقالته رفضت، ولم تتم الموافقة عليها حتى بعد أن أعلن نابوليون الحرب على بروسيا عام 1802 وأصدر قانونا يقضي باعدام كل من يقع في الأسر

وهو يقاتل في صفوف العدو. فصعب عليه أن يحارب في صفوف الألمان أبناء وطنه الأصلي كما صعب عليه أن ينضم الى أبناء وطنه ليحارب الألمان الذين أصبح يحبهم ويقربهم الى نفسه ويضعهم في فكره ووجدانه، فصرخ في حيرته وتمزقه (7) : «لم يجعل لي الزمن سيفا خاصا بي، فأنا الوحيد الذي لا سيف له على الاطلاق».

ولكن الظروف بادرت الى مساعدته مرة أخرى، ولم ترغمه على الاشتراك في محاربة الفرنسيين، ومع ذلك فقد شعر بالخزي والعار والوضاعة عند مارأى قادة الجيش البروسي، الذيْ ينتمي اليه، يستسلمون بشناعة لا رادة نابوليون، وطلب مغادرة الجيش، فسمح له بذلك. وكان أبواه قد ألحا عليه في العودة الى فرنسا قبل نشوب الحرب، فسافر الى وطنه، الا أنه وجد أبويه قد توفيا قبل ذلك بقليل. وعند ئذ عرف أنه لم يبق له، في الظروف الراهنة على الأقل، مايربطه بفرنسا، فعاد الى برلين رغم إلحاح اخوته عليه في البقاء. وأقبل على الدراسة مرة أخرى، فتعلم اللاتينية والاسبانية، كما شغل نفسه بدراسة اللغة الايطالية والأدب الايطالي دون أن يطمح الى الوصول من وراء ذلك الى هدف معين. وضاقت به برلين عندما غادرها أصدقاؤه وانتقلوا الى مدن أخرى لسبب من الأسباب العائلية أو المهنية.

وحينئذ وجد نفسه يستجيب لرغبة أخته في العودة الى فرنسا، وعندما عاد سنة 1810 عينته الحكومة الفرنسية أستاذا في مدرسة بنا بو ليونفيل، ولكنه لم يجد، لسوء حظه، وظيفة شاغرة عند التحاقه بهذه المدرسة، فاستغل فترة انتظار الحصول على وظيفة أخرى في ترجمة محاضرات أو غوست فيلهلم شليغـــل (1767 ـ 1845) عن الفن المسرحي الى اللغـــة الفرنسية، فقد عاوده الشعور بضرورة خدمة اللغة الأم الأصلية أيضا. وأتاحت له هذه الـترجمـة الاتصال بالسيدة دى ستايل(1766 ـ 1817) الكاتبة الفرنسية الشهيرة، فأقام عندها في كل مكان نفاها اليه عدوها الأكبر نابوليون، ومن ذلك اقامته عندها في قصرها قرب مدينة جنيف. ولما طردت منه أيضا ذهب الى برلين عن طريق سويسرا، وبدأ يدرس الطب والعلوم الطبيعية. وعندما أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا، قرر أن يتطوع في الجيش الألماني من حبه لألمانيا وكراهيته لنابوليون ولطغيانه، الا أن أصدقاءه حالوا بينه وبين ذلك وأبعده عن مدينة برلين، فتفرغ لكتابة بعض أعماله الأدبية(8).

وفي هذه الفترة كتب قصته المعروفة «قصة بيتر شليميل العجيبة»، التي تقبلها الألمان قبولا حسنا، ونالت شعبية كبية في انجلترا. ولم تلبث هذه الحكاية أن نالت شهرة كبيرة في أروبا بأسرها وترجمت الى أهم اللغات الأروبية كا لانجليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية والروسية، وسنعود الى الحديث عنها بعد حين. وقام فيما بين 1815 و1818 برحلة حول العالم، وصفها في أحد كتبه وصفا رائعا، لم يفقد الكثير من قيمته حتى الأن. وكان قد قال، عندما دعي الى القيام بهذه الرحلة (9) : «لقد وجدت نفسي على عتبة أغنى الأحلام، التي لم أحلم بها في صباي». وقد مكنته هذه الرحلة من مصاحبة المناظر الطبيعية الجميلة

كما مكنته من الاتصال بالشعوب البدائية، الامر الذي زاده معرفة بالطبيعة البشرية، فأحب أشعار تلك الشعوب وقلدها في أشعاره الخاصة بشكل بالغ الجودة.

وبعد عودته من هذه الرحلة، التي تعد مرحلة حاسمة في حياته، اختار الاقامة في (10) «وطنه الألماني العزيز»، وحياه بهذه الأبيات :

من البلدان الغريبة البعيدة عاد
الرحالة الى الوطن وفيض الحب في أعماقه،
فوضع عنه عصا الترحال وجثا على ركبتيه
يخضل حضنك بدموع صامتة.
ياوطني الألماني. ـ على حبي الكبير
لاتحرمني من هذا الرجاء الوحيد :
عندما تتغمض عيناي في المساء تعبا
دع الحجر يعثر علي في عمقك
لأخفي رأسي تحته وأنام.

وفضل الاقامة بمدينة برلين، التي وجد فيها عددا من أصدقائه، وانصرف إلى دراسته وتنظيم مجموعاته النباتية، التي كان قد جمعها من أماكن وأصقاع مختلفة، مكنته من الحصول على شهادة علمية في الجامعة. وسافر في خريف سنة 1825 الى باريس ليستلم التعويضات المترتبة عن الهجرة من ناحية، ويطلع على ما في فرنسا من مجموعات طبيعية ونباتيه من ناحية أخرى. وعلى الرغم من أنه حظي، خلال الفترة التي أقامها في باريس بلقاء أخوته، ورؤية أصدقائه القدامى، فقد استبد به الحنين الى زوجته وأطفاله، خاصة بعد أن اشتدت عليه وطأة الشعور بالوحدة في المدينة العالمية، فبادر بالعودة الى أهله. وتنبأ بعد عودته بما سيحدث في فرنسا بعد فترة من الزمن، وحين وقعت ثورة 1830 وضع فيها كل آماله، الا أنها سرعان ماخيبت ظنه، فلم يبق مايبتهج به غير الشهرة الأدبية، التي كانت تنمو وتتزايد بشكل مستمر.

وعاد في سنة 1832 الى اصدار صحيفة التقويم بمساعدة صديقه الشاعر غوستاف شفاب (1792 ـ 1850) وعدد آخر من الكتاب والشعراء، نشر فيه قصائد ومقطوعات لمجموعة من الشباب، الذين أصبحت لهم فيما بعد أسماء مرموقة بين الشعراء الألمان أمثال فرد ناند فرايليغرات (1890 ـ 1876) وفرانس كوغلر (1808 ـ 1858) وكذلك فيلهلم فاكرناغل (1806 ـ1869) وغيرهم. واهتم الى جانب ذلك بالدراسات اللغوية، التي قدمها بعدئذ الى المجمع العلمي، الذي كان انتخبه عضوا شرفيا فيه. على أنه أصبح في

سنواته الآخيرة عليلا، متبرما بالدنيا، ناقما على كل ما يحيط به، ولا سيما بعد أن فقد رفيقة عمره في سنة 1837، وحين أحس بدنو أجله كتب الى صديقه شفاب يقول(11) : «إني أنتظر نهايتي بصبر وأتحمل ما أنا فيه من بلاء يبدولي في النهاية عادلا ومناسبا، وأرجو الله أن يعجل بمشيئته». وتوفي في 1838/8/21، بعد ان ظل يهذي أربعة أيام كاملة، لم يتكلم خلالها بغير الفرنسية.

يعتبر شميسو، كما يقول هاينريش كورتس، ظاهرة غريبة ونادرة في آن واحد (12)، فقد بقي أصيلا في فرنسيته مثلما أصبح أصيلا في ألمانية، لأنه استطاع أن يصهر في ذاته أفضل خصائص الامتين، ويجعل منها وحدة كاملة، حيث احتفظ بما للفرنسيين من إحساس بالجمال الشكلي، والذوق السليم، والنظرة الواضحة، وإكتسب ما للألمان من بساطة في الطبع، ودأب ومثابرة، وعمق فلسفي. وقد ظهرت هذه الخصائص في أشعاره أيضا، وخاصة تلك الأشعار التي نظمها بعد عودته من رحلته حول العالم. فانضم بذلك فكرا ومذهبا ولغة الى صفوف الشعراء الألمان، وإستطاع أن يبلغ المكانة التي تليق به بينهم. وكان يستعمل الألمانية كما يستعمل الفرنسية سواء بسواء، ولكنه لم يكتب الشعر بالفرنسية إلا في المرحلة الأولى، وذلك قبل أن يسيطر على اللغة الألمانية سيطرة كاملة. ولعل هذا ما جعل شينكل يقول عنه (13) «لقد كان يشعر في أعماقه أنه موزع بين بلدين، ومن ثم حاول أن يكون ألمانيا في فرنسا، وفرنسيا في ألمانيا، الأمر الذي جعله لا يعرف الاستقرار النفسي في أي منهما». وعلى هذا لم يتخذ الاختيار عنده شكلا نهائيا قط.

وهناك من مؤرخي الادب الالماني من ينكر على شميسو سيطرته على اللغة الالمانية سيطرة كاملة، ولكنه لا ينكر عليه انتماءه الى الادب الالماني. يقول كونيغ في هذا الصدد(14) «اذا كان شميسو لم يتمكن من لغتنا تمكنا كاملا لاكتابة ولا حديثا، فإنه يعتبر شاعرا ألمانيا بأتم المعنى الكلمة». أما ولي العهد البروسي، فريدريك الرابع، فقد كتب اليه في 16 ماي 1836 يقول (15) «ان الكلمات اللاذعة والنوادر الكثيرة، التي تتضمنها أشعارك، ليست أجنبية عنا، وإنما هي وطنية خالصة، حتى إنك لم تترجم بيرنجي المنحل، وإنما جعلته ألمانيا». وهذه الشهادة ليست شهادة ناقد أو مؤرخ أدب أو أديب، ولكنها تدل على أن السلطة كانت تهتم به، وتوليه عنايتها، وتقرأ له، فقد رأت فيه مزيجا متميزا من الشاعر الألماني اولاندا (1787-1857)، والشاعر الفرنسي بيرانجي (1780-1857)، وكان هذا المزيج الخاص يشكل أسلوبا جديدا وحيوية بارزة في الأدب الألماني (16). ولعل هذا المزيج كان نتيجة لذلك التمزق، الذي دفعه الى الحديث عن الاشياء والاماكن الغريبة في الكثير من أعماله (17)، كما سيتضح من الامثلة القادمة.

وتتوزع اعمال شميسو بين الشعر الغنائي، والقصة الشعرية، والترجمة الحرة، والقصة الفنية، وفي أشعاره الغنائية رقة كبيرة، تتخللها في أحيان كثيرة سخرية لطيفة مما تنطوي عليه طبيعة الانسان من ضعف وصغار وخسة. من ذلك سخرية في قصيدة «دعاء الارملة» (18)، من الحكام والسادة، الذين يتعاقبون على السلطة، ويحرصون كل الحرص، كما لو أن هناك نوعا من الاتفاق بينهم، على أن يكون كل حاكم سيدا أسوأ ممن سبقه بمرحل كثيرة، فسطته الحقيقية لاتبرز الا من خلال قمع الرعية واذ لالها مما يولد في اعماقها الحقد عليه، والكراهية له، فتهتف الامة في نهاية القصيدة :

الهى، لاتطل عمر سيدي الحاكم
كثيرا، فأنا أدعوك باخلاص،
والبؤس يعلم الدعاء.

ويعبر عن موقفه من «الزمن الذهبي» فيقول ساخرا(19) :
املأوا الكأس حتى الحافة
ورددوا معي، أيها الأصدقاء ـ
فلنشرب نخب هذا
الوطن المحرر
والزمن الذهبي الجميل.
فالمواطن يفكر ويؤمن
يتكلم ويكتب بكل حرية
بعدما تفحصه الشرطة
العليا وتسمح به.

ويقدم صورة عن الزمن أو العصر الذهبي أكثر مرارة، فيقول (20) :
هذا هو بؤس الزمن الصعب
هذا هو الزمن الصعب للبؤس
هذا هو البؤس الصعب للزمن
هذا هو الزمن للبؤس الصعب

وتسيطر على أشعاره السمة الرومانسية البارزة، وهي الهروب الى الشرق، والعالم القديم، والعصور الوسطى، واللجوء الى المخيلات والأساطير والتواريخ، والمرئيات الطبيعية الجميلة وغيرها. ومن الواضح أن الاحساس بما في الحاضر من قهر وظلم هو الذي يجعل الشاعر يفر من مجتمعه، حين تعوزه الطبيعة النضالية، من أجل أن يعيش في هدوء

مع الطبيعة ومع المخلوقات البريئة. ومن أجمل أشعار شميسو الغنائية، التي قلد فيها أسلوب الأغاني الشعبية، قصيدته عن المرأة وما في أعماقها من حب وشغف، وحزن وألم، فتسعد مرة وتشقى أخرى، ويتم ذلك بصفة دائمة. ففي هذه القصيدة يتحدث عن امرأة حديثا دائريا أو يتحدث عنه في اطار الدائرة، التي تتكرر باستمرار، فيصف يقظة الفتاة وتحولها الى المرأة محبة، ثم يصف حبها الغامر، ودهشتها من أن يقع اختيار الحبيب عليها، ومشاعرها عندما تشاهد خاتم الخطبة، ويصف سعادتها وهي تتزين وتتجمل ليوم زفافها، وأحاسيسها خلال الحمل، وفرحتها حين تصبح أما، وحزنها حين يرحل عنها شريك حياتها، ويصف في النهاية المرأة العجوز وهي توصى ابنتها بالحب والهوى استجابة لطبيعة الحياة، وبذلك يعود الشاعر الى البداية، التي انطلق منها لتبدأ الدائرة من جديد (21).

ولا شك ان فضل خميسو على الادب الالماني يرجع بالدرجة الاولى الى انه اعاد القصة الشعرية الى الحياة بعد ان كادت تنسى نسيانا تاما، فعني عناية كبيرة بالقصص والخرافات الشعبية، الشمالية والعالمية منها على السواء، كان بعضها ثمرة لرحلته حول العالم. فكتب قصصا شعرية كثيرة، منهاقصة «عبد الله» المستوحاة من ألف ليلة وليلة، وفيها يصور جشع عبد الله وحسده، الذي لا يكتفي بالاستيلاء على حصة الدرويش من الذهب، فالدرويش في نظره لا يحتاج الا الى الله، ولايقنع بالثمانين جملا المحملة بالذهب، وانما يطلب من الدرويش ان يدهن عينيه بالمرهم، الذي كان قد وجده في علبة داخل الكنز، فينصحه الدوريش بالعدول عن ذلك، فالمرهم يمكنه من رؤية الذهب والأحجار الكريمة، د إذا هو دهن العين اليسرى، ولكنه يصبح أعمى تماما ان هو دهن العين اليمنى ايضا. وعند ما وصل به الامر الى تهديد الدرويش، لانه يريد كل ما في اعماق الارض من ذهب، دهن الدرويش عينه وتركه وحيدا في الصحراء وساق الجمال المحملة ذهبا الى البصرة.

ومن أجمل قصصه الشعرية ايضا قصة «الشحاذ وكلبه» المحزنة، ومن المؤكد ان تلخيصها هنا يفقدها كثيرا من قيمتها، ولذلك نقدم ترجمتها كاملة بمثابة نموذج لقصص شميسو الشعرية (23)، وهي دليل تعاطفه مع البؤساء. انها قصة الشحاذ، الذي لا يملك سوى كلبه، وحين يطلب منه ان يدفع ضريبة عنه، يقرر قتل كلبه ولكن قلبه لايطاوعه، فيقتل نفسه، فيتبعه كلبه :

أدفع ثلاثة دولارات عن كلبي؟
أفضل أن تلقي بي العاصفة في الهاوية.
ترى فيم يفكر سادة الشرطة؟
وما هذا العنت المسلط على ثانية؟
اني عجوز، أنا رجل مريض،

لا أستطيع ان اكسب درهما واحدا،
ليس لدي مال، ولا خبز عندي،
فما عيشى الا من الجوع والفاقة.
عندما مرضت، عند ما فقرت،
من شملني برحمته، من؟
وجدتني وحيدا مع نفسي؟
ومن أحبني حين اضناني الغم؟
ومن ادفاني حين ارعدني البرد؟
ومن جاع معي دون ان يتذمر
حين هد الجوع اوصالي؟
لقد انتهى امرنا نحن الاثنين،
ولابد من الوداع، يا بهيمتي.
أنت مثلي.. أصبحت عجوزا مريضا،
وعلي ان اغرقك، أهذا هو الشكران؟
مصيرك يشبه مصير بعض الناس.
ياللشيطان. لقد شاركت في المعارك
ولم أكن في يوم ما جلادا.
هاهو الحبل، وها هو الحجر،
ها هو الماء ـ لا بد من ذلك.
تعال، أيها الكلب، ولاتنظر الي،
هي ركلة فقط وينتهي كل شيء
ولما وضع الحبل حول عنقه
لعق الكلب يده، محركا ذنبه،
فسحب العجوز الحبل في الحين،
وألقاه حول عنقه هو.
وأطلق لعنة مروعة،
وجمع اخر ما تبقى من قواه،
وألقى بنفسه في الموج الذي
ارتفع واستدار وطواه في صمت.
وثب الكلب لا نقاذ سيده،
واستطاع ان ينبه الملاحين اليه،
وقادهم الى سيده متلهفا مستعطفا،
ولما عثروا عليه اخيرا وجدوه ميتا،

وتم دفنه في ساعة هادئة،
ولم يتبعه غير كلبه . . ناحبا،
وتمدد فوق الحفرة التي تم فيها
دفن سيده وقضى نحبه في صمت.

وأغنى شميسو الادب الالماني عن طريق الترجمة الحرة ايضا، فنظم عدة قصائد لشعراء فرنسيين، أمثال فيكتور هيغوا (1802/885/)، وجان بيير بيرانجي المذكور آنفا، وكازمير ديلافيني (1793/1843)، وشارل ـ ايبر ميلفوا (1782/1816)، ولشعراء وكتاب عالميين امثال شكسبير (1564/1616)، وهانس اندرسن (1805/1875)، ونقل فوق ذلك قصصا صينية وروسية وإسبانية بالاضافة الى القصص الألمانية والشمالية القديمة ومنها القصص الليتوانية . . هي أيضا مما إكتسبه من الثقافات الأخرى خلال رحلته حول العالم. وكان في كل ذلك، كما يقول باول هايزه (1830/1914) كان (23) «فرنسيا في دمه ونار فروسيته، المانيا في وجدانه ورقة روحه»، فساوته عبقريته وموهبته بكبار شعراء المانيا في القرن الماضي.

ومع ذلك فان شهرة شميسو ترتكز ألمانيا وعالميا على «قصة بيترشليميل العجيبة»، وقد يكون من المناسب في هذا المكان ان نترك المؤلف نفسه يحدثنا عن نشأتها، يقول شميسو(24) «كنت قد فقدت اثناء سفرة من سفراتي قبعتي، وجرابي، وقفازي، ومنديلي وكل اشيائي المنقولة. فسألني «فوكيه» عما اذا كنت قد فقدت ظلي ايضا، وأخذنا نضفي على هذه المحنة ألوانا من الأوصاف المغرية. وعندما كنت ذات يوم اتصفح كتابا للافونتين (1621/1695)، ورد فيه الحديث عن رجل يخرج من جيبه أثناء حفلة من الحفلات جميع الاشياء، التي تطلب منه ـ تسألت في نفسي عن الرجل وقلت . . لو أسمعه أخذنا كلمة طيبة، فلربما يخرج من جيبه ايضا الحصان والعربة. وعندئذ اصبحت قصة شليميل جاهزة في ذهني، وما ان توفر لدي من الالهام ما يتناسب مع القصة حتى شعرت في الكتابة».

وهذه القصة من القصص، التي يمكن تلخيصها في جملة واحدة، وهي : «قصة الرجل الذي باع ظله. ولكن القاريء لا يستطيع ان يستغنى حيالها عن لماذا وكيف وما يترتب على ذلك. ولهذا لابد من تقديم خلاصة تتضمن بعض التفاصيل قبل التعليق عليها بشكل مختصر ايضا.

ينضم الشاب الغر بيتر شليميل، وهذه الكلمة تعني المنحوس تقريبا، مصادفة الى حاشية احد التجار الاغنياء هو السيد توماس جون، وهو رجل اشيب، نحيف الجسم، يميل الى الصمت، ولكنه يثير الشاب بما يخرجه من أشياء بمجرد ان يطلب احد الحضور

منه ذلك. منها انه يخرج شريط لصق، ومنظارا مكبرا، وسجادة تركية وخيمة ملهى وثلاثة جياد مسرجة. وعندئذ يشعر شليميل بالرهبة ويحاول الابتعاد خفية، ولكن الشيخ يلحظه ويطلب منه امرا غريبا، وهو ان يبيعه ظله، ويعرض عليه في مقابل ذلك اكثر الاشياء اغراء. وبعد ان يفيق البطل من ذهوله يقبل عرض الشيخ، ويستلم منه كيس السعادة. فيستبد به في البداية رنين الذهب، الا ان فقدانه لظله لا يلبث ان يثير انتباه الجميع اليه، ويحملهم على أن ينفروا منه ويتجنبوا معاشرته رغم ماله من أموال طائلة، فيفقد في نهاية الأمر حتى الفتاة، التي احبها وكان على وشك الزواج منها. وبعد مضي الموعد السنوي يتصل الرجل الاشيب، كما تم الاتفاق على ذلك؛ بشليميل المنحوس التعس، ويعده بمساعدته، غير ان الشيخ يطرح عليه ـ لسوء حظه ـ مبادلة اخرى، تتمثل في أن يبادله روحه بالظل وكيس السعادة. وهنا يثور شليميل لكرامته ولعزة روحه، ويرمي بكيس السعادة في اعماق الهاوية، ويصبح من جديد فقيرا معدما كما كان قبل ذلك. ولكن فقدانه لظله يتحول بصورة الى مصدر بركة بالنسبة اليه ذالك أنه يشتري بما بقي له من مال قليل حذاء قديما ما أسرع ما يتحول هو الأخر إلى جزمة، تقطع المسافات بخطوات جبارة، فيطوف بها في انحاء العالم لم مكرسا أيامه لدراسة الطبيعة التي تجعله في غنى عن الاختلاط بالناس ومعاشرتهم ويسجل تجاربه وبحوثه الفريدة في كتاب تستفيد منه البشرية كلها.

ويتضح في النهاية ان هذه القصة، وهي عمل فني راق ولاشك، تظهر قيمته الحقيقية عند قراءته قراءة كاملة، تستمد موضوعها من الأساطير الشعبية، فقد تكشف الشيخ عن شيطان يريد روح شليميل، الذي يكاد يكون صورة اخرى من «حبيب الله» او ثيوفيل، وهو يمثل شخصية فاوست، التي شغف بها الأدباء والشعراء في العصور الوسطى. ومن الواضح ان المؤلف قد اتخذ من بطله رمزا لصورته هو نفسه، فقد كان هو بشكل ما عاثر الحظ منحوسا أيضا، فلم يكن يعرف كيف يكون التعامل الحقيقي مع الناس، وكيف يكون السلوك القويم في مجتمع غريب، ليس هو مجتمعه في الأصل، رغم ما كان يحس به نحوه من حب ومودة وتقدير. ولذلك فضل معاشرة الطبيعة النقية الطاهرة، والاتصال بالشعوب البدائية البسيطة ودراسة ثقافتها بشغف وولع.

ومن الطبيعي ان يختلف معاصروه في فهم القصة وتفسيرها، فقد حاولوا الوصول الى السر، الذي يكمن خلف فقدان الانسان لظله، وقدّموا لذلك تفسيرات مجازية كثيرة، فقال عنها توماس مان (25) مثلا ان القصة تحتوي «على وصف لحياة مفضلة يحسد عليها صاحبها، إلا أنها حياة رومانسية تعيسة، تنطوي أعماقها في عزلتها على سرّ حزين ـ لم يحدث لأي شاعر ان يعرف كيف يشعر بهذه الحياة ويصفها بصورة أبسط وأقرب الى الحقيقة والحياة». وهناك مواضع قليلة في القصة تفسر بنفسها معنى فقدان الظل، فقد قال شميسو على لسان بطله وهو بصدد القيام ببحوثه الطبيعية (26) «لقد فصلت عن المجتمع الانساني

لذنب قديم، ولذلك عوضته بالطبيعة التي احببتها دائما، وبالأرض التي منحت بصفتها بستانا عظيم الثراء».

على إن أشهر التفسيرات، وان كان شميسو يرفضه بسخرية كبيرة هو أن الظل شيء تافه في حقيقة الامر (27)، شيء لا قيمة له، ولكن الطبيعة هي مصدره، فقد زودت الانسان او زود الله به الانسان من خلال القانون الطبيعي، وهو بذلك يشبه الوطن الذي منح الانسان اياه عن طريق الولادة، فنشأ معه بصفته ملكية خاصة. وبما أن شميسو، الفرنسي الأصل، الذي عاش حياته بصورة دائمة مترددا بين الجنسية الألمانية والجنسية الفرنسية، فان القصة تعتبر صورة أصيلة لسيرته الذاتية. فالانسان الذي لا ظل له هو الانسان الذي لا وطن له، رغم ما قاله عنه الشاعر الألماني دينغلشتيت (1814/1881) - (28). :

كان غريبا عن شمالنا الألماني.
وابن شعب آخر عادة ولغة،
فهل تم من هو اكثر مواطنة منه؟

الجزائر، ابن عكنون 1992/02/28

ابو العيد دودو

الهوامـــــش :

1) ـ شنكل ، ص 61
2) ـ مؤلفات شميسو 1/49
3) ـ كونيغ 2/172
4) ـ المصدر السابق
5) ـ المصدر السابق
6) ـ شنكل، المصدر السابق.
7) ـ المصدر السابق ص، 64
8) ـ مؤلفات شميسو 1/8
9) ـ شيرر، ص 713
10) ـ شنكل، المصدر السابق ص 64
11) ـ المصدر السابق ص 65
12) ـ مؤلفات شميسو 1/11
13) ـ شنكل، المدر السابق 65
14) ـ كونيغ 2/176
15) ـ المصدر السابق.
16) ـ شيرر، المصدر السابق ص 713
17) ـ المصدر السابق
18) ـ مؤلفات شميسو 1/162
19) ـ المصدر السابق 1/33
20) ـ براندس 2/17، مؤلفات شميسو 1/20
21) ـ مؤلفات شميسو 1/119
22) ـ المصدر السابق 1/101
23) ـ شباتسل، ص 81
24) ـ كونيغ، المصدر السابق 2/173
25) ـ القاموس الأدبي 17/7408
26) ـ مؤلفات شميسو 1/455
27) ـ بروجيرص 432
28) ـ المصدر نفسه ص 432

المصـــــادر :

1) - Babits, Michael, geschichte der europaschen Literatur, Wien 1949
2) - Brandes Georg, Die hauptströmungen der Literatur de neunzehten Jahrhunderts, Leipzig 1897
3) - Brugier, G., Geschichte der Nationalliteratur, Freiburn 1871.
4) - Chamissos Werke, Leipzig 1929.
5) - Koenig, Rob., Deutsche Literaturgeschichte, Leipzig 1920
6) - Schenckel, J., Deutsche Dichterhalle des neunzehnten Jahrhunderts, Mainz 1851
- Scherer, W., Geschichts der deutschen Literatur, Berlin 1884.
7)
8) - Spatzel, Johann,Das deutshe Schrifllun, Prag 1912
9) - Dictionaire des Oevres, Paris 1952
10) - Kindler Literatur Lixiken, München 1974